الباب الأول

فى المعجزة

وفيه فصول ثلاثة :

الفصل الأول : طرق إثبات النبوات

الفصل الثانى : ضرورة المعجزات وطبيعتها

الفصل الثالث : مفهوم المعجزات وحكمها ووجه دلالتها

الفصل الأول
طرق إثبات النبوات

اختلف العلماء فى طرق إثبات النبوات فمنهم من ذهب إلى أن المعجزة هى الطريق الوحيد لإثباتها وهو إمام الحرمين الجوينى وحجته فى ذلك:

أنه لو كان هناك طريق آخر لإثبات النبوة ولم يكن خارقاً للعادة أو كان خارقاً ولم يكن مقرونا بدعوى النبوة لا يصلح دليلا، للاتفاق على جواز وقوع الخوارق من الله ابتداء. وفى نظرى أن حجة إمام الحرمين هى مجرد تكرار للدعوى فقط ولم يأت بدليل يثبت دعواه.

لذلك ذهب جمع كبير من العلماء ومنهم سعد الدين التفتازنى وابن تيمية والإمام أبو جعفر الطحاوى صاحب العقيدة الطحاوية إلى أن هناك طرقا كثيرة لإثبات النبوة ذكر منها سعد الدين فى (مقاصده) ثلاثة طرق وأضاف أبو جعفر طرقاً أخرى. أما الطرق التى ذكرها سعد الدين التفتازانى فهى:

١ – خلق العلم الضرورى عند بعض الناس بأن هذا النبى صادق. وذلك كما حدث لخديجة حين قالت لرسول الله ﷺ إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر فهذه الشهادة من خديجة لم تقم إلا على أساس من العلم الضرورى الذى خلقه الله عندها بأنه صادق.

ومن ذلك علم أبو بكر الصديق بصدق النبى ﷺ دون حاجة إلى ظهور خوارق العادات على يديه.

يقول ابن تيمية: «إن كثيراً من الناس يحصل لهم علم ضرورى بأن هذا النبى صادق، وهذا المتنبى كاذب بمثل ذلك، من قبل أن يروا خارقا للعادة منفصلا عنه»(١).

---

(١) الجواب الصحيح صـ ٣١٠ جـ ٤.

وقد ورد فى السنة ما يؤيد ذلك فقد روى الترمذى: «أن عبد الله ابن سلام قال: لما قدم رسول ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وهكذا خلق الله علما ضروريا عند هؤلاء بأن محمداً ﷺ- صادق دون أن يروا معجزاته، مما يدل على أن المعجزة ليست هى الطريق الوحيد لإثبات النبوات.

٢ - خبر من ثبتت عصمته عن الكذب كنصوص التوراه والإنجيل التى بشرت بنبوة سيدنا محمد ﷺحيث احتوت التوراة والإنجيل على كثير من النصوص الواضحة فى إثبات نبوة رسول الله ﷺ(١).

على أنه يلحظ أن هذه الكتب معصومة من الخطأ حين نزلت من السماء على موسى وعيسى، ولكنها تعرضت لتحريف وتزيف، وعلى الرغم من ذلك بقيت بعض البشارات بمحمد ﷺونحن نأخذ بها ونصدقها لأنها تتفق مع ما ورد فى القرآن الكريم على لسان عيسى «ومُبشراً برسول يأتى من بعدى إسمه أحمد(٢)».

٣ - المعجزة وهى التى سوف نفصل الحديث عنها فيما بعد، وأما الطحاوى فقد أكد على أن المعجزة ليست هى الطريق الوحيد لإثبات النبوات حين قال: «لاريب أن المعجزات دليل صحيح، ولكن الدليل غير محصور فى المعجزات (....) والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوة النبى فكيف بدعوة النبى، ويستشهد على ذلك بما قاله حسان ابن ثابت رضى الله عنه.

ولو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر(٣)

لذلك يذكر الطحاوى طرقاً أخرى غير المعجزة لإثبات النبوة وهى:

١ - قرائن أحوال الأنبياء من حيث نشأتهم وأخلاقهم، ونسبهم، وصفتهم.

(١) راجع كتابنا مشكلات العقيدة النصرانية - فصل البشارة بنبوة محمد .
(٢) سورة الصف آية: ٦.
(٣) شرح الطحاوية ص ٦٥.

قال القاضي عياض: «إذا تأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره، وحميد سيرته، وبراعة علمه، ورجاحة عقله، وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله، لم يمتر في صحة نبوته وصدق دعوته»(١).

ومن هذا الطريق سلم هرقل ملك الروم بنبوة محمد - ﷺ- حين سأل أبا سفيان عدداً من الأسئلة عن نسبه وأخلاقه واتباعه وما يأمرهم به، وبعد أن أجاب أبو سفيان، بين لهم هرقل ما في قرائن أحوال محمد ﷺ من وجه الدلالة على نبوته.

فقال:

سألتكم هل كان في آبائه من ملك فقلتم لا، قلت لو كان في آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتكم هل قال هذا القول فيكم أحد قبله فقلتم لا، فقلت لو قال هذا القول أحد قبله لقلت رجل إئتم بقول قيل قبله.

وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فقلتم لا، فقلت قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

وسألتكم أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم، فقلتم ضعفاؤهم، وهم اتباع الرسل (يعني في أول أمرهم) وسألتكم أيزيدون أم ينقصون فقلتم بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطا له بعد أن يدخل فيه، فقلتم لا، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد.

وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه، فقلتم انها دول، وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها.

وسألتكم هل يغدر، فقلتم لا وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتكم عما يأمركم به، فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم وهذه صفة نبي.

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ٣١٤.

وقد كنت أعلم أن نبياً سوف يبعث ولم أكن أظنه فيكم. ولولا ما أنا فيم من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين[١].

فهكذا أدرك هرقل من قرائن أحوال محمد ﷺ أنه نبى صادق فى دعواه وقام عنده الدليل على نبوته من غير طريق المعجزة، وإن كان سعد الدين التفتازانى يرد هذا الطريق إلى المعجزات فيقول:

وأما الاستدلال على نبوة محمد بما شاع من اخلاقه وأحواله فهو عائد إلى المعجزة[٢] وهو على حق فى هذا، فقد كانت أخلاق محمد ضربا من خوارق العادات. إذ كيف يخرج على اخلاق قومه وعاداتهم وتقاليدهم؟ فلم يسجد لصنم قط، ولم يشرب خمرا قط ، ولم يكذب أبداً وهو الذى نشأ فى بيئة انطبعت بهذه الصفات، إذا فأخلاقه كانت ضربا من الخوارق. إذ المعهود أن تأتى إخلاق الفرد وصفاته صورة لبيئته أو كما قالوا إن الإنسان هو ابن بيئته – فكون أخلاق الرسول تأتى مناقضة لأخلاق بيئته، هو أمر خارق للعادة. هذا بالإضافة إلى أن بعض الأسئلة التى طرحها هرقل عما كان يأمر به النبى من التوحيد والاخلاق الطيبة هو من صميم المعجزة القرآنية.

إذا فقرائن الأحوال تلك عائدة إلى المعجزة وليست طريقا مستقلا.

٢ – طريق التواتر

فقد نقل إلينا متواتراً أن الله أرسل رسلاً، وأنزل معهم كتبا . وهذه الأخبار المتواترة صادقة صدقا بينا وتثبت نبوة الأنبياء.

يقول صاحب الطحاوية «وبالجملة فالعلم بأنه كان فى الأرض من يقول أنه رسول الله، وأن أقواما اتبعوهم، وأن أقواما خالفوهم وأن الله نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم، هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها، ونقل أخبار هذه الأمور؟ أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من

(١) شرح الطحاوية وقارن سيرة ابن هشام.
(٢) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣٣.

الأمم من ملوك الفرس وعظماء الطب كأبو قراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه»[١].

وفيما يبدو أن الخلاف بين إمام الحرمين وبين من خالفوه خلاف لفظى لا حقيقى إذ يمكن حمل كلام إمام الحرمين على ما يصلح دليلا للنبوة على الأطلاق وحجة على المنكرين بالنسبة لكل نبى حتى الذى لانبى قبله ولاكتاب[٢] يبشر به. أما كلام المخالفين فيمكن حمله على ما يصلح دليلا لنبى سبقه أنبياء وكتب من الممكن أن تبشر به.

وهذا ومن الممكن أن نجمع بين الرأيين بطريق أفضل فنقول: إن المعجزة وحدها هى طريق إثبات النبوة على المعاند والمكابر ومن فى قلبه مرض بينما الطرق الأخرى وسائل لأثبات النبوة لهؤلاء العقلاء المنصفين الذين لم تنحرف فطرهم من أمثال أبى بكر الصديق وخديجة وهرقل وغيرهم.

وعلى أية حال فسوف ننتقل الآن إلى الحديث عن ضرورة المعجزات وتعريفها ووجه دلالتها وحكمها وغير ذلك مما يتعلق بها من المباحث المهمة.

• • •

(١) الطحاوية ص ٦٩.

(٢) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣٣.